

الباب الخامس

الشيعة الاثنا عشرية

سنحاول في هذا الباب أن نلقى الأضواء على أن الشيعة المتأخرة - الاثني عشرية - منفصلة تمام الانفصال عن الشيعة الإمامية الجعفرية ، آخذة بعقائد لم يعرفها الإمام جعفر الصادق ، ولا تلامذته ، محتضنة المذهب المعتزلي - وقد كان جعفر الصادق أشد أعداء هذا المذهب ، اختلف مع شيخه واصل كما اختلف مع عمه زيد بن علي ، لمتابعة زيد لواصل . وقد رأينا من قبل كيف أسرع جعفر الصادق إلى منزل زيد بن علي حيث وفد واصل من الكوفة ، وهناك جادله جعفر الصادق أشد المجادلة ، وانبرى زيد بن علي متهماً ابن أخيه بالحسد لواصل . عجباً أن تأخذ الشيعة بالمذهب المعتزلي ، ويصبح سمة لها وعنواناً حتى عصورنا الحديثة ، وعجباً أن يعلن الشيعة الاثنا عشرى المعاصر أنه جعفرى على ما فى عقيدته من خلاف بين واضح مع عقيدة الإمام جعفر الصادق . إن ما بقى من آثار جعفر الصادق فى الاثني عشرية هو الفقه ، فما زال فقه جعفر الصادق هو قانون الاثنا عشرية . ولكن تختلف العقائد الدينية أشد الاختلاف بينه وبين الشيعة الاثني عشرية . واحتضنت الشيعة الاثنا عشرية - فكرة العدد ، وهى فكرة غنوصية ، أخذتها من الكيسانية وأخذتها الكيسانية من قبل عن القبالة اليهودية ، كما احتضنت فكرة الرجعة ، وهى فكرة يهودية مختلطة بغنوصية واضحة . ولم يعرف جعفر الصادق فكرة العدد ، كما لم يعلن فكرة الرجعة . وهنا تتساءل : هل توضع الاثنا عشرية فى نسق الغلاة أم فى نسق المعتدلين من الشيعة ؟ . إن ابن خلدون - من قبل - اعتبر القائلين بالرجعة من الاثني عشرية غلاة ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نضع الاثني عشرية فى فرق الغلاة . إن ما يمكننا أن نقوله هو أنهم فرقة معتدلة من الشيعة ، اعتنقت بعض الآراء الغالية ، امترجت فيها معتزلة العقائد المعتزلة بعقائد الغنوص إلى قدر ما . واحتضنت فكرة العدد - الاثني عشر - متابعة لأثر قرآنى عن عدد النقباء ، نقباء بنى إسرائيل ، ثم متابعة لأثر حديثى عن عدد نقباء رسول الله يوم بيعة العقبة . ولكن سرعان ما صيغ الغنوص هذه الأفكار القرآنية الحديثة بصيغات غنوصية ، لا تمت إلى الإسلام بأذى صلة . وسنعرض الآن لحياة الأئمة (الستة) وأفكارهم ، وما تركوه من أثر فى تطور المذهب الشيعى .

obeykandi.com

الفصل الأول

الأئمة الستة

لا نجد في حياة هؤلاء الأئمة الستة ، ولا في نتاجهم ، ما نراه في حياة السابقين من الأئمة ، فلم ينقل عنهم ما نقل عن الأولين من علم سابق ، ونظرة متعددة واسعة للمجتمع الإسلامي الذي عاشوا فيه . ولم يرد عن واحد منهم في الرواية العلمية الصحيحة - مذهب خاص ، يجعل الشيعة من بعده ، ينسبون المذهب إليه . لا جرم بعد ذلك أن تعلق الشيعة الاثنا عشرية باسم جعفر الصادق ، فحاولوا نسبة المذهب إليه ، ولم يحاولوا نسبته إلى واحد من هؤلاء الأئمة الستة المتأخرين . ولم يظهر في هؤلاء من يقارن بجعفر الصادق أو أبيه الباقر . ويبدو أن جعفر الصادق كان قد وضع كل آماله في إسماعيل ، ابنه الأكبر ، ويبدو أن إسماعيل كان على علم وذكاء ولكن مات إسماعيل في حياة أبيه ، وكان جعفر الصادق قد عهد إليه في حياته ، فلما مات ظهرت فكرة « البداء » مرة أخرى منسوبة إلى جعفر . وانتقل جعفر إلى الرفيق الأعلى . وهنا بدأ الانقسام بين الشيعة الإمامية الفاطمية الحسينية - بل يبدو أن الانقسام نفسه قد حدث أيام جعفر . إذ أن أناساً من أتباع جعفر نفسه توقعوا في موت إسماعيل ، وستنشأ عنهم فرقة الإسماعيلية ، تبدأ ساذجة بسيطة أول الأمر على يد المبارك الكوفي مولى جعفر الصادق ، ثم تنهى فلسفية معقدة غالية . وتوقف فريق من الشيعة في موت الإمام الصادق نفسه وهم أتباع عجلان بن ناووس أعلنوا « أن جعفر بن محمد حي لم يميت حتى يظهر ويتولى أمر الناس ، وأنه هو المهدي ونقلوا عنه أنه قال : « إن رأيتم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه - فإني أنا صاحبكم » وأنه قال : « إن جاءكم من يخبركم عنى أنه مرضى وغسلى وكفنى فلا تصدقوه فإني صاحبكم - صاحب السيف » (١) وفرقة نقلت الإمامة إلى ابنه عبد الله الأقطع - وسما بالأفطحية وكان أسن أولاد الصادق - ونقلوا أيضاً عن أبيه أنه قال « الإمامة في أكبر أولاد الإمام » .

وأنه قال : « الإمام من يجلس مجلسى » وهو الذى جلس مجلسه والإمام لا يغسله ولا يصل عليه ، ولا يأخذ خاتمه ولا يواريه إلا الإمام ، وهو الذى تولى ذلك كله « وتولى الشيعة عبد الله « غير نفر يسير عرفوا الحق فامتحنوا عبد الله بمسائل في الحلال والحرام من الصلاة والزكاة وغير ذلك فلم يجدوا عنده علماً » فرجعوا عن إمامته وكان فيهم وجوه أصحاب جعفر الصادق مثل - هشام بن الحكم « وعبد الله

(١) أبو خنيفة القمي : كتاب المقالات ص ٨٠ والنوحي : فرق الشيعة ص ٦٧ والشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن أبي يعفور ، وعمر بن يزيد بياع السابري ، ومحمد بن النعمان أبي جعفر الأحول مؤمن الطاق ، وهشام بن سالم ، وعبد الله بن زرارة ، وجميل بن دراج ، وأبان بن تغلب وهؤلاء حقاً وكما يذكر النوبختي « وجوه الشيعة وأهل العلم منهم والنظر والفقهاء ثبتوا على إمامة الابن الرابع لجعفر الصادق وهو الإمام موسى الكاظم المولود عام (١٢٨ هـ) ، ثم توفي عبد الله الأقطع ، وعاد معظم أتباعه إلى الانتماء بموسى الكاظم (١) .

وقد رويت الأساطير ، ووضعت الآثار عن الإمام السابع حتى يمكن الشيعة إقدامه مقابلاً لدعوة الإسماعيلية التي بدأت تنتشر في ذلك الحين . فنقل عن الصادق أنه قال لبعض أصحابه : « عد الأيام فعددها من الأحد حتى بلغت السبت . فقال له : كم عددت ؟ فقال سبعة . فقال جعفر : « سبت السبوت ، وشمس الدهور ونور الشهور ، من لا يلهو ولا يلعب ، وهو سابعكم قائمكم هذا » وأشار إلى موسى . وقال أيضاً « إنه شبيه بعيسى (٢) » غير أن السبب الحقيقي في ولاية شيعة جعفر الصادق لموسى الكاظم هو أنه كان أكثر أولاد الإمام جعفر علماً ويبدو هذا تماماً من اجتماع وجوه الشيعة ومتكلمهم وبخاصة هشام بن سالم وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم عليه (٣) .

وقد استمرت إمامة موسى الكاظم مدة ربع قرن من الزمان (من عام ١٤٨ هـ إلى عام ١٨٣ هـ) وإمامته دخلت الإمامة دورها السرى أيضاً ، ودورها العبادي ، انتهى دور الفقه ، فلا نسمع قهراً خاصاً لموسى بن جعفر ، كما لا نسمع أن له دوراً كلامياً في عقائد الإمامية . لقد تنقل موسى الكاظم من سجن إلى سجن ، وصب عليه المهدي والرشيدي صنوفاً كبرى من العذاب ، احتملها الإمام بصبر عجيب حتى لقب بالكاظم . وهو في الحقيقة أقرب إلى جده الأكبر على زين العابدين ، نقلت عنه أورد الليل ، ودعاؤه المشهور في جوف الليل ما زال حتى الآن يردده أهل مصر - وهم سنة - « عظم الذنب عندي ، فليحسن العفو من عندك ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة » ولم يرد عنه رواية ، وإن كان يقال إنه حدث ، ولكن الحديث كان ينسب إليه بدون ذكر اسمه . وآخر الأمر كتب الإمام موسى الكاظم صفحة من الشهادة لأهل البيت . فقد قتله الرشيدي بالسم في سجن بغداد ، وأصبح فيما بعد « باب الحوائج » لأهل العراق من الشيعة يلجأون إليه روحياً ، ويلتمسون منه الشفاعة في اليوم الآخر . وبالرغم من أن الرشيدي أمر - بعد قتله - أن تعرض جثته على الجسر في بغداد عارية ليعرف الناس أن إمام الرافضة قد مات ، فقد توقف في موته مجموعة من أتباعه ، وأعلنوا أنه لم يمت وسيخرج بعد

(١) النوبختي : فرق الشيعة ص ٧٢ ، ٧٧ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٧ .

(٣) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٨٩ .

الغيبية مستندين على روايات لأبيه جعفر الصادق . أنه قال « هو القائم المهدي فإن يدهده رأسه من جبل . فلا تصدقوه . فإنه صاحبكم »^(١) . ولكن جمهرة الشيعة نقلت الإمامة إلى ابنه على المشهور بالرضا ولقد ولد على الرضا عام ١٥٣ هـ ومات سنة ٢٠٣ هـ وكانت إمامته عشرين عاماً ، وفي السنوات الأخيرة منها استقدمه المأمون وجعله ولياً لعهدده ، ثم قتله بالسم بعد ذلك . ولعل الرضا قبر بطوس ، يعتبره الشيعة الإمامية من أكبر مزاراتهم . وقد دفن بجوار الرشيد ، قاتل أبيه . وقد توارى قبر الرشيد ، وبقي قبر الرضا حتى الآن .

وتتضح أهمية علي الرضا فيما أضافه إليه الشيعة الاثنا عشرية وما حملوه إياه من عقائد وكتب ، فقد نسبوا إليه صحيفة تحوى مجموعة من الأحاديث ، كما أنهم نسبوا له رسالة في أصول الدين وفروعه . ويرى الدكتور أحمد صبحي في بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية « أنه إذا كان في عصر الصادق قد اكتمل التشيع مذهباً وعقيدة ، فإنه في عصر الرضا قد اكتملت صياغة هذه العقائد المذهبية في عبارات ونصوص تجمد سبلها السريع إلى الحفظ والتصديق وسرعة الإيمان حتى يجتمع عليها المعتنقون فينشأ على حفظها الصغار ويردد نصوصها الكبار في جوهر المذهب ولب العقيدة .

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن رجال المذهب من أمثال هشام بن الحكم ووزارة بن أعين ومؤمن الطاق كانوا صاغوا المذهب وفتقوا الكلام فيه ، بحيث أصبح في صورته النهائية ، ولكن رسائل وصحف الأئمة مقدسة ، وهذا ما جعل لصحيفة الرضا ورسائله المنسوبة إليه كل هذه القيمة ثم انتقلت الإمامة بعد وفاته إلى ابنه محمد الجواد ، وهو مازال طفلاً في السابع من عمره ، وقد عدت كتب الشيعة ما أظهره من معجزات وكرامات ، وهو في طفولته ، وقد اختلفت الشيعة الاثنا عشرية في علمه ، فالعلم عند الشيعة إنما يكون بالقل والأيمن عن الإمام الذي سبقه ولكن على الرضا قد ذهب إلى بارتبه وترك ابنه وهو ابن أربع سنين وأشهر ، ومن كان في هذا السن ، فلا يستطيع تعلم « دقيق الدين وجليله » وهو ما يفترض في الأئمة . أجابت فرقة من الإمامية بأن الله عز وجل علمه ذلك عند البلوغ « بضروب مما يدل على جهات علم الإمام مثل الإلهام والنكت في القلب ، والنقر في الأذن والرؤيا الصادقة في النوم والملك المحدث له ووجوه رفع المنار والعمود والمصباح وعرض الأعمال « أي لجأ هذا الفريق من الشيعة الإمامية إلى المغيبات ، يلتسمون فيها وفي تصورها إقامة علم الإمام . بل يذهبون إلى أن الأخبار الصحيحة القوية الأسانيد والتي لا يجوز دفعها ولا رد مثلها . قد صحت في الإمام محمد الجواد »^(٢) .

(١) القمي : كتاب المقالات ص ٩٠ ، التوحيدي : فرق الشيعة ص ٨١ ، والشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٩٧ ، التوحيدي : فرق الشيعة ص ٨٩ .

وطائفة ثانية لم توافق على أن علم الإمام من جهة الإلهام والنكت والملك ، لأن الوحي منقطع بعد النبي ﷺ ، والإلهام إنما هو أن يلحقتك عند الخاطر والفكر معرفة بشيء قد كانت تقدمت معرفتك به من الأمور النافعة ، فذكرته ، وذلك لا يعلم به الأحكام وشرائع الدين على كثرة اختلافها وعللها قبل أن يوقف بالسمع منها على شيء ، لأن أصح الناس فكراً ، وأوضحه خاطراً وعقلاً . وأحضره توفيقاً ، لو فكر وهو لا يسمع بأن الظهر أربع والمغرب ثلاث والغداة ركعتان ، ما استخرج ذلك بفكره ولا عرفه بنظره ولا استدل عليه بكمال عقله ولا أدرك ذلك بحضور توفيقه ، ولا لحقه علم ذلك من جهة التوفيق أبداً . ولا يعلم ذلك إلا بالتوفيق والتعليم ، فقد بطل أن يعلم شيئاً من ذلك بالإلهام والتوفيق . وهنا تنقطع الإمامة . ولكن هذه الطائفة من الإمامية ما تلبث أن تجد مخرجاً فتقول إن محمد الجواد هو قبل البلوغ إمام على معنى أن الأمر له دون غيره إلى وقت البلوغ ، فإذا بلغ علم من كتب أبيه وما ورثه من العلم فيها ويجمده فيها من الأصول والفروع . وذهبت هذه الفرقة إلى إجازة القياس في الأحكام للإمام خاصة على الأصول التي في يديه ولكونه معصوماً من الخطأ والزلل ، فلا يخطئ في القياس أبداً . وبهذا انتهت هذه الطائفة إلى احتضان فكرة القياس ، ونحن نعلم أن الشيعة الاثني عشرية لا تجيزه إطلاقاً .

أما الفرقة الأخيرة التي اختلفت في علمه ، فقد أعطت الإمام القداسة العظمى التي تشيع في فكرة الإمامية عامة ، وهو أن الإمام إمام بالغ أو غير بالغ ، لأنه حجة الله على الأرض ، وقد يجوز أن يعلم وإن كان صبياً ، ويجوز عليه الإلهام والنكت والرؤيا والملك المحدث ، فكل ذلك يجوز عليه ، كما جاز على سلفه الماضين ، حجج الله في الأرض ، وقد حدث هذا ليحيى بن زكريا من قبل ، وأتاه الله الحكيم صبياً ، وعيسى بن مريم وغيرهما من الحجج (١) ومات محمد الجواد عام ٢١٩ هـ ولم يبلغ الخامسة والعشرين .

وتولى الإمام على الهادي الإمامة بعد وفاة أبيه وهو العاشر في دورة الأئمة ، وكانت سنة حين تولى الإمام محمد الجواد ثمانية أعوام ، وقد عاصر الإمام على الهادي حكم المتوكل . وكان المتوكل ناصبياً ، يكره على بن أبي طالب وأولاده أشد الكراهية وقد هدم قبر الحسين وحاول إخفاءه ، وقد اتخذ مع الإمام على الهادي موقف أبي جعفر المنصور مع الإمام جعفر الصادق ، فكان يستدعيه من المدينة لسؤاله وإحراجة . وحضر الإمام مراراً . ويذكر المسعودي أنه سعى به مرة عند المتوكل ، وقيل له : إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، فأرسل إليه ليلاً جماعة من حرامه الأتراك وهجموا عليه في

(١) المسعودي : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ .

متزله على غفلة ممن في داره ، فوجدوه في بيت وحده مغلق عليه ، وعليه مدرعة من شعره ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وعلى رأسه ملحفة من الصوف ، متوجهاً إلى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد . فأخذوه كما هو إلى المتوكل في جوف الليل ، وأخبروه بغيره وكان المتوكل في مجلس شرايه والكأس بين يديه ، فقدم إليه المتوكل الكأس الذي بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط ، فاعفني منه ، فأعفاه المتوكل ، ثم أمره بإنشاد شعر .
فقال الإمام :

باتوا على قتل الجبال تحرسهم	غلب الرجال فيما أغتتهم القلل
واستزلوا بعد عز عن معاقلمهم	فأودعوا حفر يا بش ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا	أين الأمرة والتيجان والحلسل
أين الوجوه التي كانت منعمة	من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساملمهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتل
فظالما أكلوا دهنراً وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كتزوا الأموال وادخروا	فخلقوها على الأعداء وارتملوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة	وساكنوها إلى الأحداث قد رحلوا

وحين سمعها المتوكل ، وضع الكأس وبكى ^(١) .

ولكن المتوكل ما يلبث أن يأمر يحيى بن هرثة بإشخاص الإمام من المدينة . ويضح أهل المدينة ويعجبوا ، ويؤكد لهم يحيى بن هرثة أنه لم يؤمر فيه بمكروه . ويستجوبه المتوكل ، ولا يجرد عليه حرجاً ، ثم يعيده إلى المدينة .

وقد نسبت الشيعة إلى الإمام على الهادي المعجزات ، فالسحاب يظله ، والمطر طوع يديه ، إلى آخر تلك المعجزات التي تعود الشيعة نسبتها إلى الأئمة . كما أنهم أسندوا إليه أيضاً حديث « الإيمان ما قرته القلوب وصدقته الأعمال ، والإسلام ما جرى به اللسان وحلت به المناكحة » وينقل المسعودي أنه كان لديه صحيفة بخط علي بن أبي طالب ياملأ رمول الله يتوارثها الأئمة كابراً عن كابر . كما يذكر الشيعة أيضاً خبره مع زينب الكذابة وهي التي ادعت أنها ابنة الحسين عليه السلام وإن الله أطال عمرها إلى ذلك الوقت . وقد أرسل المتوكل للإمام على لكي يجاجها . وقد فعل ، وتحداها أن تنزل بركة السباع فأبت . فترل هو فتدللت له السباع ورجعت زينب الكذابة عن دعاها ^(٢) . ومات الإمام

(١) المسعودي : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ . (٢) المسعودي : مروج الذهب . ج ٢ ص ٧٤٣ - ٧٤٤ .

على الهادى فى خلافة المعتز سنة أربع وخمسين ومائتين .

وخلفه فى الإمامة الإمام الهادى عشر الحسن العسكرى وقد زوجه أبوه من جارية رومية هى مليكة بنت يشوع بن قيصر ملك الروم ، وقد ذكرت كتب الشيعة الإمامية أن أمها من نسل شمعون - وصى المسيح وهنا أيضاً صورة أخرى لزواج الحسين بن على بابنة كسرى كما ذكرت كتب الإمامية أيضاً قصة اتصالها بالإمام الحسن العسكرى فى أسلوب روائى جميل ، والغاية من هذا كله عند الشيعة الاثنى عشرية هى إعداد الإنسانية جمعياً لتلقى نهاية الدور التام - من الأئمة فى قصة من أروع القصص الإنسانية ، والمزج بين مهدي الإسلام وبين قصة «المهدي» المسيحية أنزول عيسى فى آخر الزمان مؤتماً بمهدي الإسلام . وقد نسبت المعجزات إلى الحسن العسكرى ، وبالرغم مما كان يحيا من قسوة حتى سمى المعتمد العباسى عام ٢٦٠ هـ وهو ابن تسع وعشرين سنة . وقبل وفاته بخمسة أعوام فى يوم الجمعة منتصف شعبان عام ٢٦٠ هـ - ومن جاريته التى سميت باسم نرجس خاتون أوريحانة أوصيل أوسوسن أو خمط على اختلاف ولد الإمام الثانى عشر سنة ٢٥٥ م أو ٢٥٦ - مهدي الزمان وحجة الله على البشر . بشر به القرآن «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» وبشر به النبى «اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى» اسمه محمد وكنيته أبو القاسم «والقابه المهدي والحجة المنتظر» وصاحب الزمان «وصاحب الدار والقسم والمهدي والهادي والصاحب» إبنى نبى وعلى وصى . ألا وإن خاتم الأئمة منا القائم المهدي صلوات الله عليه ، ألا إنه الظاهر على الدين ، ألا إنه المنتقم من الظالمين : ألا إنه فاتح الحصون وهادمها .

أما ولادته ، فقد نقل الشيعة إلينا ما فيها من خوارق تتجاوز خوارق عيسى المعروقة ، فقد تكلم فى المهدي كما تكلم عيسى من قبل وحمله أبوه فكلمه ، ودعا هو الله أن ينجز وعده ثم دعا طيراً من السماء ، وكان هذا الطير روح القدس ، فحمله إلى أعلى عليين . وبكت أمه ، وهو يودعها إلى القدس الأعظم . وكان يعود بين الفينة والفينة .

ثم مات أبوه وكان عمر القائم خمس سنوات وبقى القائم قليلاً ، ثم غاب الغيبة الصغرى وقد امتدت إحدى وسبعين عاماً ، وقد ظهر فى هذه الآونة لطائفة من كاملى الشيعة . ثم بدأت الغيبة الكبرى ، وسيعود فى آخر الزمن .

هكذا نشأت عقيدة الغيبة ، وعقيدة الرجعة فى صورتها النهائية عند غلاة الشيعة الإمامة أى الاثنى عشرية (١) هى حجب الله للإمام واختفاؤه عن أعين البشر ، وهو حى يلهم العبادة والتسبيح ، ويطلع على خفايا البشر ، والثانية : أن الله سيبيده ، فيحقق للناس كمالاً ، من ناحية تحققه بالصفات التى

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٥٣١ .

نظهر عن إمام العصر ، ويحارب الشيطان حتى يقضى عليه . وهكذا نرى أثر الكيسانية النافذ في عقائد الاثني عشرية . أو بمعنى آخر أن الأسطورة التي نشرها الكيسانية عن غيبة محمد بن الحنفية في جبل رضوى ، وأنه حتى يلهم العبادة والتسبيح تعود في صورة غنوصية أو أشد في عقائد الاثني عشرية . ويعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن المهدي اختفى في سامرا - بالحلة ، ولذلك يذهبون كل ليلة إلى باب السرداب في مسجد سامرا . وقد أعدوا مركباً وعليهم السلاح ، وقرءونه السلام ، ويدعونه للخروج « باسم الله ، يا صاحب الزمان ، اخرج . قد ظهر الفساد وكبر الظلم وقد آن أوان خروجك » ويسلمون عليه منادين « خليفة الله ، ووصي الأوصياء الماضين ، وبغية الله من الصفوة المتتخين ، وباب الله الذي لا يوثق إلا منه ، ونور الله الذي لا يطفأ » .

انتهى دور الأئمة بالتوقف في موت الإمام الثاني عشر ، وبدأ دور الوكلاء الأربعة . وقد عين الإمام الحسن العسكري أول هؤلاء الوكلاء - وهو عثمان بن سعيد ثم عين عثمان ابنه محمداً . ثم عين محمد الحسن بن روح . وكان الوكيل الأخير هو علي السمرى . ول هؤلاء الوكلاء عند الشيعة الاثني عشرية ما للأئمة من الاحترام والتقدير . وقد مثل الوكيل الأخير أن يعين وكيلاً بعده - وهو يوجد بنفسه - فأبى وقال « الله أمر هو بالغه » .

وقد كان هؤلاء الوكلاء الأربعة من خواص الإمام العسكري ، وكانوا هم الوسطاء بينه وبين شيعته ، يلجأ إليهم في أصول الدين وفي الأحكام الفقهية . وقد شهد الإمام العسكري بعد التهم وجعلهم أمناء على شئون الإمام المهدي . وبموت الرابع ، بدأت غيبة الإمام الكبرى . غاب الإمام ، ولكن لم ينقطع سلطانه على الناس ، إنه حتى في خلود دائم حتى يوم رجعت ، إنه ينظر الناس ويراهم ، وهم لا ينظرونه ولا يرونه . ولكن قد يراه خواص الناس ، إنه هو المتصرف في شئون شيعته ، القائم على أمورهم ، المدير لوجودهم » .

عجباً أن تنتهي قصة الأئمة الاثني عشرية إلى هذا الحد الأسطوري . وعجباً أن تثير عقائد راسخة متمكنة في عقائد مجموعة من البشر ، بل أن ينبرى لها جماعة كبرى من متكلمي الإسلام يدافعون عنها وينافحون . وسنحاول أن نتبع في الفصل المقبل عقائد الشيعة الاثني عشرية ، أو بمعنى أدق تطور هذه العقائد حتى تصل إلى صورتها الكاملة ، كما هي بين أيدينا اليوم .

الفصل الثاني عقائد الشيعة الاثني عشرية

لم تكن هناك عقائد شيعية واحدة ، بل كان لكل عصر من عصور الأئمة تراث أضيف إلى تراث السابقين ، وكان الأئمة غير متعاصرين ، فكان لكل عصر من عصورهم عقائده وفلسفته واتجاهاته . فامتاز عصر كل إمام بالإنجازات العلمية السائدة في عصره ، وامتاز عصر الإمام علي زين العابدين بالحديث ، وكان الرجل من خيار التابعين . وامتاز الباقر بالحديث أيضاً ، ولكنه كان في معترك الفرق ، فوقف تجاهها موقف المحدث ، ينهى عن الكلام والأهواء والخصومات في الدين ، ويكاد يتشابه مع الإمام مالك بن أنس . ويضخم الفقه والكلام في عصر الصادق ، ويكون هو مرآة لكل هذا ، فيرمى أسس الفقه الشيعي الإمامي ، ويكاد يتشابه مع الإمام أبي حنيفة ، فأبو حنيفة إمام الفقه ، وخاض في الكلام ونسب إليه رسائل ؛ كما نسب إلى جعفر رسائل ، ولم يترك جعفر الصادق كتاباً كاملاً مدوناً ، وكذلك أبو حنيفة ، وكما أثار أبو حنيفة الأبحاث المتعددة في فقه السنة ، فعل جعفر الصادق هذا في فقه الشيعة . وكما اختلف الناس في أبي حنيفة فقالوا إنه قدرى ومرجئ وجبري ومن القائلين بخلق القرآن ، كذلك اختلفوا في جعفر الصادق ، فقد نسبوا إليه كل الفرق ، وأضافوا إليه كل الاتجاهات ، وأنطقوه بكل المتناقضات . وبعد جعفر الصادق ، قام علماء المذهب ، كهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهما من علماء الإمامية بالعمل الأكبر في صوغ مذاهبها . أما الأئمة الستة الآخرون فلم يكن لهم أي دور إيجابي هام في تصوير العقيدة الشيعية ووضعها في صورتها النهائية .

والملاحظة الثانية : أن المذهب في أيدينا الآن غيره في عهد الأئمة الأولين ولم يقبل الأولون - أئمة وأتباعاً - المذهب المعتزلي ، بل إن محمداً الباقر كان عدواً صريحاً للمعتزلة ، وكان من رجال الحديث المتبعين للأثر ، ونرى جعفر الصادق أقرب إلى أهل السنة والجماعة في آرائه الكلامية مع اعتزال غير واضح ، بل تورد المصادر حججه العنيف مع عمرو بن عبيد من ناحية وواصل بن عطاء من ناحية . إن من الواضح أن جعفر الصادق كره الرجلين أشد الكراهية وكره مذهبهما ، وكره أن يتابع عمه زيد واصل في كثير من أصوله الكلامية . ثم يكاد التجسيم ينبثق من رجاله الأقرين مثل هشام بن سالم الجواليقي وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم . فكيف اعتنق المتأخرون من الشيعة المذهب المعتزلي واعتبروا أصول الدين أربعة : التوحيد والعدل والنبوة والإمامة ، ويترنم شاعرهم المتأخر :

مطران' قد خطا بلا كاتب العدل والتوحيد في جانب
وحب آل البيت في جانب

ونحن لا نجد أدنى فرق بين أى معترى وابن المطهر الحلي عالم الشيعة المتأخر الكبير حين يكتب عن عقائد الاثنى عشرية الكلامية فيقول «إن الله عدل حكيم ، لا يفعل قبيحاً ، ولا يخل بواجب ، وأن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح وحكمة ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف رحيم بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأأنفع » وأنه تعالى كلفهم تحييراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ، ولا المعاصي ، وإلا لم يبق وثق بأقوالهم وأفعالهم ، فتنتى فائدة البعثة»^(١) هذا كلام معترى واضح ، بناه مجتهدو الشيعة المتأخرين حين وجدت المعتزلة ملجأ في الشيعة ، بعد أن أنزل علماء الأشاعرة الضربات الساحقة بهم ، وليس في قدماء الشيعة شيء من هذا . بل إن الإمام جعفر الصادق يقول في الإرادة «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً . وأراد منا شيئاً ، فما أرادنا بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ، فما بالننا نستغل بما أرادنا بنا ، عما أرادنا منا» ثم إن رأيه في القدر هو «أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض» وكان يقول في الدعاء «اللهم لك الحمد ، إن أظعتك ، ولك الحجة إن عصيتك ، لا صنع لى ولا لغيرى في إحسان ولا حجة لى ، ولا لغيرى في إساءة»^(٢) وهذا رأى يكاد يقرب من الأشاعرة ، فلم يكن جعفر الصادق إذن معترئاً لها حاول الشيعة المتأخرون نسبة العدل والتوحيد إليه . وقد تنبه الشهرستاني إلى هذا ، فقال إن الشيعة بعد أن افرقوا وانتحل كل واحد منهم مذهباً ، وأراد أن يروجه على أصحابه ، ونسبه إليه وربطه به ، والسيد برىء من ذلك ومن الاعتزال ومن القدر ، وفي فقرة أخرى . . «وقد تبرأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه ، وتبرأ منه ولعنهم ، ويرىء من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم ، من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه»^(٣) . وكتاب الانتصار للخياط المعترى وثيقة نادرة تثبت تمام الإثبات ما بين المعتزلة والشيعة الإمامية - وبخاصة هشام بن الحكم وهو تلميذ جعفر وصديقه وصفيه - من اختلافات كبرى في دقيق الكلام ورفيقه . والإمامية تؤمن بانئى عشر إماماً ، فهل ذكر الأولون من الأئمة - اثنى عشر إماماً ؟ وهل أعلن الإمام على بن أبى طالب استخلاف اثنى عشر إماماً ؟ وهل نادى بهذا على زين العابدين ، أو محمد الباقر أو جعفر الصادق ؟ من المحتمل أن يكون أبو هشام بن محمد بن محمد بن الحنفية ، قد ذكر شيئاً عن اثنى

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٣٠ .

(٢) الشهرستاني : الفرق ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٢

عشر نقيباً محمد بن علي العباسي ولكن الشيعة حملوا الأئمة السابقين آثاراً تعلن فكرة العدل الآتية عشرى كما حملوهم فكرة الإمام الغائب ، غيبته وخلوده ورجعته ، مع أنهم لم يذكروها أبداً . إن إقامة المذهب الإمامي الاثني عشرى في صورته الكاملة إنما كان على يد المجتهدين المتأخرين من علماء المذهب ، الذين قاموا بأخذ مصادره الأولى ، وأخذوا يصوغونها صياغة جديدة ، ويضيفون إليها عناصر متعددة من هنا وهناك ، حتى اكتمل في أيديهم .

وسنحاول أن نعطي صورة لآراء الاثني عشرية في إيجاز .

صاغ مجتهدو الشيعة الاثني عشرية أصولهم في أربع : (١) التوحيد (٢) العدل (٣) النبوة (٤) الإمامة .

وقد فصل عالم الشيعة الكبير ابن المطهر الحلي عقائد الإمامية الاثني عشرية في الفقرة الرائعة الآتية : « ذهب الإمامية إلى أن الله عدل حكيم لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب ، وإن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصح لهم والأفزع ، وأنه تعالى كلفهم تحبيراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ولا المعاصي ، وإلا لم يبق وثوق بأموالهم وأفعالهم ، فتنتى فائدة البعثة ، ثم أردف الرسالة بعد موت الرسول بالإمامة فنصب أولياء معصومين منصوبين ليأمن الناس من غلظتهم وسهوهم وخطئهم ، فينقادون إلى أوامرهم لئلا يخل الله العالم من لطفه ورحمته ، وأنه لما بعث الله محمداً ﷺ ، قام بنقل الرسالة ، ونص على أن الخليفة بعده علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم من بعده ولده الحسن الزكي ، ثم ولده الحسين الشهيد ، ثم علي بن الحسن زين العابدين ، ثم علي محمد بن علي الباقر ثم علي جعفر بن محمد الصادق ، ثم علي موسى بن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضا ، ثم علي محمد بن علي الجواد ، ثم علي بن محمد الهادي ، ثم علي الحسن بن علي العسكري ، ثم علي الخلف الحججة محمد بن الحسن المهدي عليهم الصلاة والسلام وأن النبي ﷺ لم يمت إلا عن وصية بالإمامة » (١) .

هذا التعبير الدقيق عن أصول الشيعة الاثني عشرية يجعل بينه وبين الأئمة الأوائل هوة من أعمق الهوات في مسألتين من أهم المسائل : وهما التوحيد والعدل ففي هذين الأصلين لجأ الشيعة إلى المعتزلة ، واعتنقوا المذهب المعتزلي كاملاً ، أو بمعنى آخر لجأ المعتزلة إلى الشيعة ، بعد أن نزلت بهم ضربات أهل السنة والجماعة ، واختلطت عقائدهم بعقائد الاثني عشرية ، كما اختلطت من قبل بعقائد الزيدية . وهنا تساءل ما هي العلة في احتضان الشيعة للمذهب المعتزلي في التوحيد والعدل ؟ نحن نعلم أن

المذهب المعتزلى عاش فى رحاب العباسيين ، وكان عقيدة الدولة العباسية إجمالاً ، اللهم إلا المتوكل ، كما كان المذهب الجبرى عقيدة الدولة الأموية من قبل اللهم إلا يزيد بن الوليد المعروف بيزيد الناقص . أما أئمة أهل البيت الكبار وبالأخص محمد الباقر وجعفر الصادق فقد كانوا من رواد المذهب السنى ، إن جعفر الصادق بالذات كان أقرب فى عقائده الكلامية إلى عقيدة الأشاعرة ، وهى العقيدة التى تكونت بعده على هدى من عقائد السلف . وكان أعظم رجاله الكلاميين كما سنرى بعد - هشام ابن الحكم - مجسماً أو أقرب إلى التجسيم . وسنرى أيضاً كيف هاجم الحياط المعتزلى هشاماً فى كتابه « الانتصار » .

إن الإجابة على هذا التساؤل تنقلنا إلى الترجيحات الآتية : الترجيح الأول : بعد العهد بين المجتهدين الجدد والأئمة ، ولم يكن هناك إمام ذو سلطة دينية يوقف « المجتهدين » فى صوغ آرائهم . فنسى هؤلاء الاتجاه السلقى الواضح لدى الباقر ، كما نسوا الموقف الوسط لجعفر الصادق . وأرادوا أن يتلمسوا أو أن يبنوا قلعة محصنة ضد الأشاعرة - حين ازدهر هؤلاء وقصوا على المذهب المعتزلى - فأرادوا الاستعانة ببقايا هذا المذهب لإيقاف المذهب الأشعرى الذى كان قد تكامل إبان هذا الوقت على يد مشيخة الأشاعرة العظام . نسي المجتهدون أو تناسوا آراء الباقر وآراء الصادق الكلامية كما مروا سراغاً بهشام بن الحكم وكان عدو المعتزلة ، وند أبى الهذيل العلاف ، كانت غايتهم فقط مخالفة المذهب الأشعرى بمجج أعدائه القدماء . الترجيح الثانى : إن معتزلة بغداد - كانوا أقرب إلى التشيع ووضعوا نظرية فى الإمامة هى مزيج من الإمامية الشيعية العلوية ومن الإمامية الشيعية العباسية ، فهل كانت الاثنى عشرية امتداداً لمعتزلة بغداد ؟ . والترجيح الآخر هو دخول كثير من الزيود فى الإمامية وعودتهم إليها ، فحملوا معهم كثيراً من عناصر مذهبهم ، المعتزلى ، ومزجوه بمذهب الاثنى عشرية ، وكانت الزيدية متكاملة المذهب الكلامى . وينبغى أن نحدد العقائد الشيعية الإمامية المعتدلة ونرسم تاريخها على الشكل الآتى : عقائد سلفية قديمة على يد عالم الإسلام الكبير على بن أبى طالب وحفيديه على زين العابدين ومحمد الباقر ، عقائد كلامية عقلية تتوسط المذاهب وهى أقرب إلى الأشاعرة على يد جعفر الصادق ، وعقائد مجسمة على يد تلامذة جعفر هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليتى ومؤمن الطاق ، وانتشر التجسيم ، وظهر كتاب الانتصار للمعتزلى ، فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى يؤرخ لنا تلك المرحلة الشيعية المجسمة ، ثم ظهر كتاب الشيخ المفيد (المتوفى ٤١٣ هـ) أوائل المقالات يمثل لنا المرحلة المعتزلية فى عقائد الشيعة . أو يمثل لنا تكون العقائد الشيعية الاثنى عشرية ، وتابع الشيخ المفيد مشيخة من أعلام المذهب الاثنى عشرى كالشريف المرتضى والرضى والطومى ثم ابن المطهر الحلى فى عصر متأخر . ولا يقلح فى مذهب من المذاهب تطوره العقائدى ، إن هذا التطور إنما

هو دليل على حيوية المذهب ومرورته وقبوله للتطور العقلي المستمر . لا جرم بعد ذلك كان ينسب الشيعة المجهتدون إلى الصادق أنه قال : « الله ليس كمثل شيء ، ليس بجسم ولا صورة ولا تقع عليه الرؤية في الدنيا والآخرة ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وأنه لا جسم ولا صورة وهو جسم الأجسام ومصور الصور لم يتجزأ ولم يتناه ولم يتزايد ولا يتناقص ومن زعم أن الله في شيء أو على شيء أو يحول من شيء إلى شيء ، أو يخلو منه شيء ، لا يشتغل به شيء ، فقد وصفه بصفة المخلوقين ، والله خلق كل شيء ، لا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس ولا يخلو منه مكان . ولا يشتغل به مكان ، قريب في بعده . بعيد في قربه . ومن زعم أن الله تعالى من شيء ، فقد جعله محدثاً . ومن زعم أنه في شيء ، فقد جعله محصوراً ، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً . »

هذا النص الذي نقله لنا الكافي يدل دلالة واضحة على مزج أقوال جعفر الصادق بكلام معتزلي أو بمعنى أدق بكلام اثني عشرى متأخر . كانت غايته أولاً وبالذات تدعيم الأصل المعتزلي القديم الذي اعتنقه متأخرو الاثني عشرية إنكار رؤية الله في الدنيا وفي الآخرة ، وهكذا فعل المجهتدون الموسومون بمجتهدي المذهب الاثني عشرى في نسبة أصول العدل والوعد والوعيد إلى الأئمة .

فإذا انتقلنا إلى الأصل الثالث عند الشيعة الاثني عشرية وهو النبوة . فلا نجد ثمة اختلافاً كبيراً بينهم وبين أهل السنة والجماعة ، فالفريقان يجتازان سلسلة النبوة بمحمد ﷺ ، ولكن يختلف الفريقان اختلافاً جزئياً في مسألة العصمة ، فبينما يذهب الشيعة الإمامية إلى أن الأنبياء معصومون عن الكبائر والصغائر قبل النبوة ، وبعدها ، يذهب أهل السنة في الجملة ، إلى اعتبار الأنبياء معصومين عن الكبائر قبل النبوة وبعدها ، ولكن غير معصومين عن الصغائر سهواً في بعض الأحيان . ولكن لم يكن في هذا خلاف جوهرى .

وإنما يبدأ الخلاف بين الشيعة الاثني عشرية وبين أهل السنة في مفهوم الإمامة اختلافاً كبيراً ، انفق أهل السنة والاثني عشرية والإسماعيلية في وجوب نصب الإمام . ولم يشذ عن هذا سوى بعض المعتزلة - فرقة الأصم - التي ذهبت إلى أن الإمامة غير واجبة لاسمياً ولا عقلاً ، وكذلك النجدات العاذرية من الخوارج فقد ذهبت إلى نفس الرأي ، وقررت أن الإمامة إنما تعود إلى مصالح العباد ، لا إلى لطف من الله يستلزم الأصلح والأكمل .

ولكن هذه آراء شاذة لا تتوقف عندها . فالخلاف الحقيقي إنما كان بين الشيعة وأهل السنة الأشاعرة ، يذهب الأشاعرة إلى أن الإمامة واجبة سمياً ، بينما يذهب الشيعة إلى أن الإمامة واجبة سمياً وعقلاً ، والإمامة هي جوهر العقيدة الشيعية عامة - اثني عشرية وإسماعيلية - والشيعة هي التي خرجت في فكرتها عن الإمامة عن إجماع الجمهور . والإيمان عند الشيعة إنما يتكون من الاعتراف

بتوحيد الله ونبوة محمد ﷺ وموالاته إمام العصر. فالإيمان بإمام العصر هي قاعدة إمامية تتصل بجوهر العقيدة وتتصل بها أوثق الاتصال. وهذا ما دعا الأشاعرة فيما بعد إلى مناقشة الشيعة في فكرتهم عن الإمامة في باب العقائد مع أن الإمامة مشكلة عملية، واعتبار الشيعة الاثني عشرية «الإمامة» جزءاً من العقيدة أثار ضجة كبرى في العالم الإسلامي. ونفر علماء أهل السنة يجارون بها ويجادلونها بعنف بالغ، وقد راعهم أن يضاف إلى العقيدة التقليدية أصل لم يرد إطلاقاً من قبل، بل لقد فتش المحدثون في آثار السلف من أهل البيت فلم يجدوا له مكاناً. إنه من المؤكد أن الإمام علي بن أبي طالب كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وكذلك أبنائه وأحفاده من بعده، ولكن ليس في آثار هؤلاء ما يجعل الإمامة جزءاً من العقيدة يسوي بينها وبين شهادة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ولو كانت الإمامة جزءاً من العقيدة، ومتممة لشهادة التوحيد، فهل كان علي بن أبي طالب يقبل الحياة بعقيدة ناقصة. قد يقول الشيعة إنه اتخذ التقية في عهد الشيخين. وهذا مرفوض قطعاً. ما كان فارس الإسلام العظيم علي بن أبي طالب يأبى الذل، ويتقى في العقيدة. لقد اتقى في حقوقه، ولكنه لم يتقأ أبداً في حقوق الله.

ولكن المتأخرين من الاثني عشرية ما لبثوا أن وضعوا الأدلة على الإمامة بأنها واجبة وجزء من العقيدة - ودليلهم الأول أن الإمامة لطف من الله وهذا اتجاه معتزل واضح ودليلهم الثاني حفظ الشريعة. وهذا اتجاه عملي، ثم تتابعت الأدلة على ذلك.

ولا يكنى الشيعي مجرد الإيمان بالإمام، بل لابد من موالاته، والولاية بمعنى الانتماء للأئمة. وهذا ركن شيعي هام، ويستتبع الولاية البراءة من الأعداء، ولذلك كان لعن أعداء علي وغاصبيه، وبخاصة الشيخين فريضة افترضها الشيعة الاثني عشرية على أنفسهم. ومن الإنصاف للشيعة أن نقول: إن لعن أعداء علي وغاصبيه كان رد فعل لما قام به الأمويون من سب علي وآل بيته من على منابر المسلمين. وكم كان جزع المسلمين من الأوائل من هذا السب. وقد انتهى الأمويون وانتهى سب علي وأولاده، بل إن أهل السنة من قبل والآن يتعبدون على تراث أهل البيت. فقيم لعن الشيخان إذن؟

والإمام، هو مصدر التشريع بعد القرآن والسنة المؤكدة عن طريق أهل البيت، فلا يقبل الشيعة إسناداً إلا عن طريقهم. فالإمام وارث العلم النبوي، وإنما يعلو على البشر باتصاله الدائم بالعلم الإلهي، ولم يصل إلى هذا عن اكتساب واعمال دليل، بل يتقدح العلم في نفسه انتقاداً، إنه منه وفي طبيعته ومادته انتقل إليه العلم الغيبي بعد تسلسل طويل في أرواح الروحانيين من الملائكة والأنبياء. في البدء كانت هناك مادة نورانية، انتقلت من نبي إلى نبي حتى وصلت محمداً ومنه إلى علي وفاطمة.

واجتمع النور في الأئمة الفاطميين ، فادة أرواحهم من هذا النور الخلاب الذي به المخلصين والنجيبين من الشيعة ، فآمنا به إيماناً عجيباً . ولقد آمن من قبل الملائكة حين انتقل هذا النور إلى آدم ، فسجد الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر . وقد أمر الله آدم أن ينظر إلى قبة العرش الإلهي ، حيث شاهد تلك الأجسام النورانية المقدسة منعكسة في هذا القدس العظيم ، كما تنعكس صورة الوجه في مرآة صافية . فانعكسات هذه الأجسام المقدسة محتواة في العرش الإلهي ، ومنها إمام العصر ، يؤمن به خالص المؤمنين ، بينما يكفر به أتباع الشياطين . فالعلم الغيبي إذن للأئمة ، هو أشبه بالوحي ، بل إن علوم الأئمة أشمل وأعظم من علوم الأنبياء باستثناء النبي محمد ﷺ ويورد الاثني عشرية قولاً ينسبونه إلى الإمام جعفر الصادق هو قول الله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا - ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » قال الصادق : منذ نزل ذلك الروح على النبي ما صعد إلى السماء ، وهو فينا ، ويحدد الرضا اتصال الإمام بالوحي « أنه يسمع الكلام ولا يرى الشخص » أي يتلقى الوحي ولا يرى الملك . والإمام في هذا يختلف عن النبي الذي يتلقى الوحي ويرى الملك .

وأطلق الشيعة أيضاً على لسان جعفر الصادق « ورب الكعبة لو كنت بين موسى والخضر ، لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتها بما ليس في أيديهما ، لأن موسى والخضر أعطيا علم ما كان ، ولم يعطيا علم ما يكون وما كان حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وارثه ^(١) ولكن جعفر الصادق كما يروي الكليني نفسه ، يجب - حين سئل عن علم الأئمة - أنهم كصاحب موسى وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبين ، إذ لهم ما للنبي ، ولكن ليسوا أنبياء ، فلا يتنزل عليهم الوحي ولا يعمل لهم ما يعمل للنبي من النساء فأما ما خلا ذلك ، فهم بمنزلة رسول الله ، إذ لم يعلم الله نبيه علماً ، إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين ، فهو شريكه في العلم « وهذا الأصل متصل بولاية الأئمة ، إذ كيف يفرض الله طاعة الإمام على العباد ، ثم يحجب عنه أمر السماء ، فيتصرف في العباد على غير يقين . فالإمام مرجح الناس جميعاً . أو بمعنى أدق الإمام هو الولي الكامل .

والإمامة تسير في انتقالها طبقاً لناموس ثابت ، لا تختلف فيه ، قدر الله في علمه القديم ، فهل تنتقل من إمام إلى إمام - كما خط الله في اللوح ، لا تغيير ولا تبديل في علمه ، وهكذا كانت الإمامة نصاً لا تعييناً ، ولا تترك لتزعجات البشر وأهوائهم والافسد أمر الشريعة ، إذ أن حفظها موكول بالإمام المعصوم يقول الصادق : « إن الله تعالى أوضح بأئمة الهدى من أهل بيتنا عن دينه ، وأبلى بهم عن سبيل مناجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه ، فن عرف واجب حق إمامه ، وجد طعم حلاوة إيمانه ، وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأن الله نصب الإمام علماً لخلق ، وجعله حجة على أهل مواده

(١) الكليني : الكافي ص ٥٦ - ٦٠ .

وعالمة بل يذهب الشيعة الاثني عشرية إلى منح الإمام سلطة كونية «نحن أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا تمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا يتزل الغيث وتشر الرحمة . ولولا من في الأرض منا لساخت الأرض بأهلها ، ولم تغل منذ خلق الله آدم من حجة الله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة الله ، ولولا ذلك لم يعبد الله (١) . وستنتقل هذه العقيدة إلى الصوفية ، وسيعلم هؤلاء أن الأرض خلقت لأجل محمد وآله .

بل إن الانتفاع أيضاً حادث بالإمام الحجة الغالب . يقول الشيعة على لسان الإمام علي زين العابدين : «إننا نتنفع به ، كما تنتفع الشمس المحجوبة بالغيوم ، فنعلم من هذا أن فيوضه وبركاته تعم الخلق حتى في زى الغيبة» وقد سئل كيف ينتفع الناس بإمام مستور ويكون حجة الله عليهم . قال «كما ينتفع الناس بالشمس إذا سترها السحاب» . وهكذا أنطق الاثني عشرية الإمام عليا زين العابدين بغيبة الإمام وبالانتفاع منه في الغيبة أيضاً .

وإذا كان الإمام مصدر المعرفة ومصدر الوجود ، فلا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته ، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية .

وكان لا بد لمنطق المذهب الاثني عشرى أن ينتهى بنسبة العصمة إلى الأئمة . وقد اختلفت أنظار المجتهدين من الشيعة فيها . فبينما يذهب البعض منهم إلى أن المعصوم من الأئمة يفعل الطاعة مع عدم قدرته على المعصية ، يرى البعض أن المعصوم قادر على فعل المعصية وإلا لم يستحق المدح على تركها ولا الثواب ولبطل الثواب والعقاب في حقه ، فكان خارجاً عن التكليف وأن العصمة ليست مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن ولا ملجئة إليه ، بل هي الشيء الذي يعلم الله تعالى أنه إذا فعله بعيد من عييده لم يؤثر معه معصية له ، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله ، بل المعلوم منهم ذلك هم الصفوة الأخيار لقوله تعالى «ولقد اخترناهم على علم على العالمين» ، وقوله . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» ولاشك أن في نسبة العصمة للأئمة مع قدرتهم واختيارهم تناقضاً . وانتهى المجتهدون إلى القول تحت تأثير معتزلى إلى أن العصمة هي أمر يوجد الله للإمام لطفاً منه ، فيهديه إلى الطاعة ، فلا يقدم على المعصية (٢) .

ولقد حاول الشيعة الاثني عشرية تخريج قول علي زين العابدين في المعصوم بأنه «هو من اعتصم بحبل الله المتين» أي القرآن ، فلا يفترق الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة .

(١) المرتضى : البحر الزخار ج ٥ ص ٣٨٠ .

(٢) الشيخ المفيد : شرح غفائد الصدوق ص ٦١ من ١١٤ .

فالإمام يهدي الناس إلى القرآن والقرآن يهديهم إلى الإمام لقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » يفسره المجلسي بأن تفسير العصمة بالاعتصام بحبل الله - إما باعتبار أن الله يعصم الأئمة من الذنوب بسبب اعتصامهم بالقرآن أو بأن المراد بأن الله عصمه بالقرآن فيعمل بما جاء به ويعرف معانيه » ولكن هل هذه العصمة - بهذا المعنى - مقصورة على الإمام ، أم أنها في متناول كل قرآني اعتصم بالقرآن ؟

وقد يتساءل الإنسان : فيم هذا كله ، وما الذي أثار الشيعة الاثني عشرية للقول بعصمة الإمام ودفعهم إلى الدفاع عنها وبحبها بحثاً كلامياً وفقهياً ؟ إن الأسباب لاعتناق الاثني عشرية لهذا الأصل أولاً : هو أن الإمام صاحب السلطة لا الأمة كما يدعى الأشاعرة ، أو بمعنى أدق بيننا يعلن الأشاعرة «عصمة الأمة» مستدين على الأصل المشهور «الإجماع» متخذينه من الحديث المشهور «لا تجتمع أمي على ضلالة» يعلن الاثنا عشرية عصمة الإمام مستدين أيضاً على أصلهم المشهور «موالاة الإمام» وأن الأرض لا تخلو من قائم بالحق وعلى الحديث الشيعي «من مات ولم يعرف إمامه ، مات ميتة جاهلية» ثانياً - نسب الاثنا عشرية للإمام «العلم الإلهي» وهو علم سرى في كتب وجوامع - الجفر والجامعة ومصحف فاطمة . . الخ ، وعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون . إن حامل هذا العلم الإلهي ، هذا المستودع لتراث الأئمة ، عن خاتم الأنبياء ، لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ والنسيان . ثالثاً - النور الإلهي نور محمد ، كيف يكون مستوراً ومستقراً في إمام ويكون هذا الإمام عرضة للخطأ ؟ وهنا مدخل للغنوصية في مصدرها الأفلوطيني المحدث . ورابعاً - الإمام مصدر الأحكام ، وله وحده مطلق التصرف في أعتاق المسلمين وكل ما يمس حلالهم وحرامهم ، وكما أنهم لم يوافقوا أهل السنة على الإجماع ، لم يوافقوا أكثر وأكثر على القياس . فحين حرموا القياس ، لجأوا إلى الحكم المباشر من الإمام . يلقبه إليهم عن تلق أو عن اجتهاد ، ولا بد أن يكون اجتهاده مبرأ من العيوب ، معصوماً من الخطأ .

لا إجماع إذن ولا قياس ، وإنما نص قرآني أو حديث عن إمام من الأئمة ، أو اجتهاد أشبه بصلصلة الجرم ، ولكن الإمام غائب ، وانتهى عهد الوكلاء ، فأى أصل من الأصول يعود إليه الشيعة الاثنا عشرية ، إذا استحدثت حادثات استحدثوا أصلاً غريباً : كل ما خالف العامة فهو رشاد . وما أعجب هذا الأصل .

وأخيراً - نأتى إلى الإمام الغائب - وقد رأينا نشأة الفكرة من قبل عند السبئية الأوائل ، ثم عند الكيانية وعند الكثيرين من الغلاة . وقد آمن بها الاثنا عشرية إيماناً كاملاً ، حتى يومنا هذا . وقد تعرضوا لأجلها لأشد أنواع الهجوم العقلي من أعدائهم معترلة وأشاعرة . بل إن الشيعة الإمامية اختلفت

فما بينها أشد الاختلاف . وقد نقل لنا التوبخني^(١) في فرق الشيعة عقائد أربع عشرة فرقة ، اختلفت فيما بينها أشد الاختلاف ، حول حقيقة القائم ، وأخيراً انتصرت الفرقة القائلة بإمامة محمد بن الحسن العسكري ، على أن الشيعة الإمامية لم تسلم من اختلاف حتى بعد ظفر هذه الفرقة الأخيرة . يقول الشهرستاني : «صارت الإمامية متمسكين بالعدلية في الأصول وبالمشبه في الصفات ، متحيرين تائمين ، وبين الإخبارية منهم والكلامية سيف وتكفير ، وكذلك بين التفصيلية والوعيدية قتال وتضليل^(٢) وما زال لهذا الاختلاف بقايا حتى الآن .

وقد ظهرت لدى الشيعة الاثني عشرية مشكلة من أدق المشاكل وهي : متى يظهر الإمام المحتفى ؟ وقد اختلفوا في هذا . أما الذين حددوا ظهور الإمام المهدي في زمن معين ، فقد سماوا بالوقائين وكتبوا - كتباً عدة يحاولون بها تحديد وقت ظهور الإمام الغائب ، بينما آمن الأغلبية العظمى من الشيعة الاثني عشرية بإنكار الوقت ، ويبدو هذا من دعائها أمام مسجد الإمام الغائب في سامرا «أشهد أنك الحق الثابت الذي لا ريب فيه ، وأن وعد الله فيك حق . لا أرتاب فيك لطول الغيبة وبعد الأمد ، اللهم طال الانتظار ، وشممت بنا الفجار ، وصعب علينا الانتظار ، اللهم أرنا وجه إمامك في حياتنا وبعد المنون ، اللهم إني أدين لك بالرجعة بين يدي صاحب هذه البقعة . . الغوث ! الغوث ! الغوث ! ولكن لم تنته فكرة التوقيت في محيط الشيعة الاثني عشرية ، لقد ظهرت الشيعة ثم البابية ثم البهائية ، مؤمنة بالوقت ، منسلخة عن الشيعة الاثني عشرية ، بل منسلخة عن الإسلام كلية ضاغنة على الإسلام أشد الضغن ، مستعدية عليه في جميع بقاع الأرض اليهودية والنصرانية .

قد رأينا الشيعة تحاول أن تجد مصدراً للرجعة في الإسلام وتستند في هذا إلى أحاديث كثيرة منها ما أورده الترمذي ، وابن حجر العسقلاني ، بل إن ابن تيمية نفسه - وهو المحدث الكبير - يوافق على صحة أحاديث المهدي وخروجه في آخر الزمان . غير أن نسق مذهب الرجعة عند الشيعة يخالف تماماً نسقها عند أهل السنة والجماعة ، وإن كانت الفكرة الشيعية عن المهدي قد أثرت بلا شك في فكرة مهدي أهل السنة والجماعة ، ويبدو أن أهل السنة اختلفوا في حقيقة المهدي ورجعته ، وأنكره البعض ، كما أنكره المعتزلة جميعاً .

وأخيراً . . . هل الفكرة يهودية ؟ فالمهدي يوازي المسيح ، والمسيح فكرة أنتجها العقل اليهودي وهي تعني منقذاً ومخلصاً يظهر لإنقاذ البشر ، وما زال اليهود يتطلعون إلى ظهوره . بل إن اليهودية تؤمن بأن إيليا أيضاً رفع إلى السماء وسيعود وأثرت الفكرة اليهودية في المسيحية أيضاً ! فالمسيحية وقد اعتقدت

(١) التوبخني : فرق الشيعة ص ٩١ وما بعدها .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

في ظهور المسيح ، تؤمن أيضاً بمخلوده أولاً ثم يبعثه ثانياً . أم أن المهدي هو ساوسخايات المهدي الزرادشتي مختلطاً بعناصر مسيحية ويهودية (١) ؟

هل أثرت كل هذه الأساطير اليهودية الزرادشتية في التراث الشيعي ؟ وكان المهديون في الإسلام محمداً ﷺ وعلى بن أبي طالب ومحمد بن الحنفية ، وزيد بن علي بن الحسين ، ومجيب بن زيد ، هؤلاء من آل البيت . ثم نرى كثيراً من المصلحين ولا سيما في العصور الحديثة قاموا بحاربون الفساد أو الاستعمار باسم المهدي مثل مهدي السودان ، ومهدي السنوسي ، ومهدي القوقاز إيليا منصور ، ومهدي الأكراد حسن بن عدى . وما زال المسلمون في القوقاز يأملون في عودة إيليا منصور ليخلصهم من حكم الروس ، كما أن الأكراد يأملون في ظهور حسن بن عدى . ويبدو أن فكرة المهدي إنما تعود إلى فترة من فترات الحسرة التي تسود العالم الإسلامي حيناً إذا ما سلبت منه السلطة الدينية فيؤمل الناس في ظهور رجل أو إمام يتفاد عن الدين ويعيد مجده ولعل هذا الضمير القلق هو الذي أبدع فكرة المهدي ، أبدعها من لا شيء ، وبدون استناد على أي من النصوص ، ورأى بقايا اليهود في العالم الإسلامي إسباغها حينئذ على أئمة الشيعة ، إضراراً للعداوات المتأججة بين المسلمين ، فدخلت في عقائد الشيعة مؤيدة بالحجج ، ومسلحة بالبراهين وأصبحت جزءاً من العقيدة الشيعية على مر العصور .

(١) جولد تسيبر : العقيدة والشريعة ص ١٩٥ .